القوة الحربية لمصر والشام
في عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ١ —

كون المعز لتنبيت عرشه جيشاً لجباً كان أكثره من قبيلة كتامة التي ساعدت الأسرة المالكة ، وأخلصت لها في بلاد المغرب ، وعلى رأسها تم فتح مصر ، ولكن جيش الفاطمية لم يحتفظ بوحدة عنصره خوفاً من استبداد هذا العنصر ، فكون لنفسه فرقاً أخرى من الديلم والأتراك ، حتى إذا كان عهد المستنصر أصبح أكثر جنده من السودان ، حتى بلغوا نحو خمسين ألفاً ، وأصبح أكثر من الأتراك ، فلما جاء بدر الجمالي من عكا أقام له جيشاً من الأرمن أبناء جنسه ، وصاروا معظم الجيش . وشبت الحروب الصليبية ، والجيش في مصر يتكون من هذه العناصر المختلفة ، مضافاً إليها عنصر البدو من بلاد الحجاز . ويظهر أن الفاطميين لم يكونوا من أبناء مصر فرقاً في جيشهم ، فلم يرد ذكر لفرقة مصرية في كتب التاريخ ، ولم يحدثنا عنها ناصري خسرو الذي وصف الجند في عهد المستنصر ؛ وإنما اعتمدوا على هذا المزيج الأجنبي لما يرد لصلاح الدين قلب دولتهم من غير أن ينهض المصريون للدفاع عنها .

كان الجيش في مصر يتكون من هذه العناصر المختلفة التي ظلت تتغذى في المدة الباقية من الحكم الفاطمي ، وسميت فرقه بأسماء مختلفة تدل على موطنها حيناً كطائفة البرقية الذين قدموا من برقة ، أو على من كونها حيناً آخر من خليفة أو وزير كطائفة الحافظية والآمرية والجيوشية والأفضلية ، نسبة إلى الخليفة الحافظ والخليفة الآمر ، وأمير الجيوش بدر الجمالي وابنه الأفضل ، أو على جنسها كالفرقة الرومية والسودانية ، أو على قبيلتها كفرقة المغاربة المكونة من إحدى قبائل البربر ، أو على زعيمها كالطائفة اليمونية نسبة إلى يمون .

لم تذب هذه العناصر بعضها في بعض لتكوين وحدة متسقة ، ولكن احتفظ كل عنصر بشخصيته ، وسكنت كل طائفة في حارة خاصة بها ، ولم تكن الصلة بين هذه الطوائف صلة حب ووئام دائماً ، وإنما كانت المنافسة هي المظهر السائد بينها . وكثيراً ما أدت المنافسة إلى الاشتباك في حرب بين هؤلاء المتنافسين ، كتلك الحرب التي شبت بين الأتراك والسودان في عهد المستنصر والتي لم تهدأ إلا بعد أن جلبت الخراب على مصر . وقد يثير الطامعون في الحكم الفتن بين هذه الفرق ليستنصروا ببعضها على بعض ، فتندلع نيران الحرب بين الفريقين كما فعل الأمير حسن ابن الحافظ لدين الله الذي كان يبغي أن يكون ولي العهد بدل أخيه حيدرة ، فإنه أثار الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية ، والتقى الفريقان في معركة قتل فيها ما يزيد على خمسة آلاف نفس ؛ وكانت هذه الوقعة أول مصائب الدولة الفاطمية ، وكما حدث في الحروب التي قامت بين شاور وضرغام .

هذا المزيج إنما يصلح لدفاع الصليبيين إذا وجد القائد القوي المدرب ، أما وقد ضعف الخلفاء ، وأصبح هم وزراءهم الأول الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم ، فقد أبقى الوزراء الجيوش الموالية لهم في مصر لتوطيد شوكتهم في البلاد ، فلم يكن موقف الجيش المصري من الحروب الصليبية الأولى ناشئاً من قلة كما سنرى ، وقد حاول الأفضل بن أمير الجيوش أن يستعين بالمغاربة على حرب الصليبيين ولكن لم ينجح .

وكان الجيش بالشام في تلك الفترة من الزمن بالإمارات المختلفة مكوناً من العرب ولا سيما البدو ، ومن الترك[1] .

والظاهر أن أقوى الفرق بمصر عند ما جاء إليها صلاح الدين كانت الفرقة السودانية التي اعتز بها السودانيون ، فزحفوا إلى مصر ، وصار لهم بها شوكة وقوة ، وكونوا لهم في كل قرية ومحلة وضيعة مكاناً مفرداً لا يدخله وال ولا غيره احتراماً لهم . ويبدو أنه عز على هذه الطائفة أن ترى صلاح الدين وجيشه الجديد يغتصب مالها من القوة والنفوذ ، فدبر زعماؤها المكائد له ، ولكنه بادر بقتل زعيمهم ، ومهاجمتهم في حيهم ، فهزمهم وخرب حارتهم المنصورية وتتبعهم في بلاد الصعيد حتى أفنائهم .

وكون صلاح الدين جيشاً معظمه من الأكراد . قال ابن إياس (ج ٦ ص) : « لما ملك صلاح الدين أزال ما كان بمصر من

(١) ابن الأثير حـ ١٠ ص ١١٤ .

العناصر الملفقة وكانوا بين صقالبة وكدانة ومصامدة وأرمن وشناترة العرب والعبيد السود ، فحما تلك الطوائف جميعها ، واتخذ بمصر عساكر من الأكراد خاصة ، فكان عددهم اثنى عشر ألف فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلون من الحروب ، ولكن يظهر أن الجيش فى عهد صلاح الدين أيضاً لم يكن موحد العنصر من الأكراد بل كان فيه ترك وعرب . وربما كان صلاح الدين قد فسح المجال للمصريين فالتحقوا بتلك الجندية وكونوا فرقاً ، بل يظهر أن صلاح الدين وخلفاءه لم يبرحوا جيش الفاطميين تبديلاً تاماً ، بل أبقوا على بعض فرقه ، ففى عهد العزيز بن صلاح الدين يسجل التاريخ قتالاً دار بين الطائفة العمودية واليانسية ، وهما من فرق الجيش الفاطمى .

وحافظ خلفاء صلاح الدين على تكوين جيوشهم من الأكراد والترك والعرب ، وقسمت الجيوش فرقاً نسبت كل واحدة منها إلى أحد القواد العظام كالفرقة الأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه ، والصلاحية نسبة إلى صلاح الدين ، والأشرفية نسبة إلى الأشرف موسى .

وكما لم تذب العناصر بعضها فى بعض أيام الفاطميين لم تذب كذلك فى عهد الأيوبيين ، وكان النزاع يحدث أيضاً بين هذه العناصر والفرق ، أو ينحاز بعضها إلى زعيم وينحاز بعضها الآخر إلى زعيم غيره كما حدث ذلك فى أيام العزيز ، وفى عهد العادل الثانى . غير أن القيادة القوية فى عهد الأيوبيين لا تلبث أن تعيد النظام إلى نصابه ، وتقبض بيدها القوية على الزمام ، فيسود السلام ويسود النظام .

وظل العنصر الكردى هو الغالب على الجيش طوال عهد الدولة الأيوبية حتى عهد الصالح أيوب الذى استكثر من شراء المماليك ، وكان معظمهم من الأتراك . وسبب استكثاره منهم أنه لمس إخلاصهم ووفاءهم له فى الشدة التى ألمت به فى حرب لأخيه العادل ، فإنه عند ما اعتقل بالكرك ، انفض من حوله جنده من الأكراد ، ولم يبق معه سوى مماليكه الذين اشتراهم ، فعند ما استولى على عرش مصر حفظ لهم ذلك الجميل ، واستكثر منهم حتى صار منهم معظم الجيش ، وارتفع عددهم فى معركة المنصورة إلى عشرة آلاف[1] ، وظل المماليك حفظة أوفياء للصالح وذكراه ومنذ ذلك الحين إلى أن انتهت الحروب الصليبية والعنصر الغالب فى الجيش النظامى الدائم هو عنصر الأتراك المماليك وإن كان فى الجيش أكراد وعرب ، أما عند ما هوجمت مصر ، وبدا خطر استيلاء الفرنج عليها فى عصر الكامل والصالح فقد هب المصريون للدفاع عنها ، واجتمع منهم عدد ضخم ساهم مساهمة فعلية فى الذود عن حياض الوطن[2] ، وفى الحلات الحربية التى شنتها مصر فى جنوب الوادى أو ضد المغول أو الفرنج فى عصر المماليك لم تتكون جيوشها من المماليك وحدهم ، بل شاركهم فى ذلك المصريون والسوريون والبدو من العرب ، وكان عددهم يزيد على عدد المماليك[3] ومن ذلك يبدو لنا أن المصريين والعرب قد ساهموا — ولا مرية فى ذلك — بنصيب كبير فى الحرب ضد الصليبيين والمغول فى عصر الأيوبيين والمماليك ، فإن هذه الأرقام الضخمة التى يحفظها التاريخ للجيش الإسلامى المهاجم أو المدافع لا يمكن أن تفهم إلا على أساس اشتراك المصريين والعرب فى هذا الجيش الذى يجب أن نميز فيه بين جيش نظامى ثابت قد يكون للعرب والمصريين فيه نصيب متواضع ، وبين جيش قائم بحملة حربية ، يساهم فيه هؤلاء بالنصيب الأوفى .

***

كان الجيش فى العصر الفاطمى مقسما إلى درجات ثلاث رئيسية : أولاها طليعة الأمراء ، وأعلام ذوو الأطواق الذهبية ، ثم حملة السيوف الذين يحرسون الخليفة فى موكبه ، ثم القواد العاديون . وثانيها رجال الحرس ، وأرقام الأستاذون الذين يوكل إليهم مهام الأمن ، ثم شباب الحرس وهم نخبة ممتازة من شباب الأسر عددهم خمسمائة ، ثم فرق تكنات الخليفة ، ويبلغون زهاء خمسة آلاف ، وثالثها فرق الجيش كل فرقة تحمل اسماً خاصاً بها كما ذكرنا[4] .

وتكون الجند زمن الأيوبيين والمماليك من طبقتين : هما

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(٢) ابن إياس حـ ١ ص ٧٩ و ٨٥ و ٨٦ .

(٣) ابن إياس ص ٩٦ و ٩٧ والسلوك حـ ١ ص ٧٤٩ وصبح ص ٥٧ و ٦٠ .

(٤) ابن بول ص ١٥٤ .